خطاب الفصل بين الفلسفة والدين عند شوبنهور

أ. د. حسون عليوي فندي (*)

المقدمة

شهد النظر في مسألة العلاقة بين الفلسفة والدين مواقف متباينة في الخطاب الفلسفي بعامة ؛ ولكن هذه المواقف لم تخرج عن واحد من ثلاثة : التضاد أو التوفيق أو الفصل . ولقد قُدّر لخطاب التوفيق أن يكون لأسباب تاريخية وموضوعية، الخطاب الأكثر شيوعاً وانتشاراً في التراث الفلسفي الوسيطي بخاصة : الإسلامي منه والمسيحي.

وفي عصر النهضة الأوروبي، ابتداءً من المدرسة الرشدية اللاتينية وما تلاها، وإلى يومنا هذا ، أصبح خطاب الفصل بين الفلسفة والدين هو الخطاب السائد ، ونحن نجد محاولات لهذا الخطاب عند الكندي (في بداية تفلسفه) والمفكر الاسلامي السجستاني (ت ٣٧٥هـ - ٩٨٥ م) . والفلسفة الحديثة المتأخرة زاخرة بالمواقف من مسألة العلاقة بين الفلسفة والدين . ولكن اوضح هذه المواقف، ومن موقع الفيلسوف ، يتجلى في موقف (شوبنهور) (١٧٨٨ – ١٨٦٠) .

إن السياق الذي عبر فيه (شوبنهور) عن رأيه في مسألة العلاقة بين الفلسفة والدين يعد مثالاً نموذجياً لمتن خطاب ((الفصل)) بينهما؛ فهو يبين لنا بوضوح، وبنصوص من فيلسوف، مستندات الفصل ، لنقل التقليدية ، بين العقل والايمان استناداً الى مرجعية كل منهما ، وهو يُفَصّل في نوع المُخاطَب في كل من الفلسفة والدين ، واثر ذلك في البنية السردية – الاسلوبية لكل منهما ، وفي حياة الناس وعلاقاتهم وأحكامهم (المتعصبة أو المتسامحة) على معتقداتهم ، وهو يكرس ببيانه اسباب وضرورة الفصل بين الفلسفة والدين اطروحة ألزام النظر فيهما عندما يكون الامر متعلقاً بالصلة بين العلم الانساني (علماً وفلسفة) والوحي الالهي .

(*) الجامعة المستنصرية / كلية الآداب
hswnalsaray@gmail.com

ولهـذا الاعتبـار خصصنـا هذا البحـث له، ولاعتبـار اخـر يتعلـق بعـدم معرفـة القارئ العربي (القارئ بالعربية وحسب) بهذا المجال من تفلسف هذا الفيلسـوف المثير للفكر؛ بل ان الاهمال قد اصاب هـذا المجال حتى في الكتب المخصصة لشوبنهور وفلسفته (مثل كتاب عبد الرحمـن بدوي المعروف عن ((شـوبنهور))؛ و كتـاب Julian Young المفصّـل عن((Schopenhauer)) ، ٢٠٠٥).

ولهذا فقد حرصنا على أن يكون هذا التعرض لخطاب (الفصل) الشـوبنهوري بين الفلسـفة والدين ضمـن رؤية الفيلسـوف العامة للدين ، بمـا في ذلك ، علاقتـه بـ (الميتافيزيقا) وتجذره الانسـاني ، واهميته ، ونـوع خطابه ومخاطبه وهـو أمـر فـي غايـة الاهمية فـي كل خطاب الفصل بين الفلسفة والدين ، وفي كل تاريخه .

مسار موضوع البحث

لكـي نفهم بدرجة كبيرة من الوضوح مسـألة العلاقـة بيـن الفلسـفة والديـن ، ونتفهم موقف الفيلسـوف منهما في سـياق الكلام على العلاقة بينهمـا ، علينا ان نتوقف امام اعتبارين ، الاول لفظي ، ولكنه مهم ، ومفاده : ان (شـوبنهور) يتحدث عن نوعين من الميتافيزيقا ، الاول يدل على الفلسـفة أو هو الفلسفة ، والثاني يدل على الديـن او هو الدين . هذا في الاعم الاغلب الذي لـم يمنع ظهور كلمتي: الفلسـفة والدين ، او ما يعادلهما في سياق البحث في العلاقة بينهما مثل العقل والنقل .

وأمـا الاعتبـار الثاني فهو مفهومـي ويتعلق تحديـداً بفهم (شـوبنهور) لمعنـى الميتافيزيقا اصطلاحاً وأبعاداً دلالية في سياق المقارنة بين نوعيـن من الميتافيزيقا . وهـو امر لا نظير له في اهمية التفهيم الصحيـح لفحص العلاقة بين الفلسفة والدين ، كما هو واضح .

ونحـن سنتمسـك هنا ، كجزء مـن متطلبات الحفـاظ علـى البحث الموضوعـي الممكن في هذا الموضوع ، باللفظ الشوبنهوري ، العاكس لفكر هذا الفيلسـوف المثير للفكر ، فنقدم تعريفه للميتافيزيقـا اولاً ، ثـم نبين ، تعرضـاً للأبعاد الكامنة في هذا التعريـف ، نوعي الميتافيزيقا، في سـياق التبييـن لحاجة الانسـان الضرورية لهذا النوع المثير للفكر من الفكر ، ثم ننتقل بعد ذلك الى الدين فنكشف عن تجذر الدين في وعي الناس وحياتهم ، وضرورتـه تاريخياً ومعرفياً في هـذا الوعي . ثم ننعطف الـى الجزء الثاني المهـم ، وهو فـي الغاية من هـذا البحث ، الى الموقف الفلسفي العام للفيلسوف من الدين ، مع اطلالة للاستشـهاد بمثالي البوذية والمسـيحية على سبيل المقارنة لبيان هذا الموقف ، ثم ندخل بالجزء الاساسي منه ، بل والمقصد الام من كل ذلك وما سـيأتي ، وهو التمييز ، بل والفصل ، بين نوعي الميتافيزيقا ، او بين الفلسفة والدين ، والوقوف على الآثار المترتبة على الخلط بينهما وسـيظهر لنا (شوبنهور) ، ونحن نتصفح هذه ((الآثـار)) ، كما لو ان الفيلسـوف يعيش بين ظهرانينا ، ويتنفس مضطـراً من غبار فضائنا الملوث بالخداع .

المبحث الأول : الميتافيزيقيا أنواعها وضرورتها.

اولاً: الميتافيزيقيا أنواعها.

يقول (شوبنهور) في تعريفه النقدي للميتافيزيقا : ((افهم بالميتافيزيقا كل معرفة تزعم انها تتجاوز التجربة الممكنة ، وبالتالي تتخطى الطبيعة او المعطى من الاشياء الظاهرة من اجل اعطاء تفسير لذلك الذي تكون التجربة والطبيعة مشروطتين به))[١] .

يُعد هذا التعريف مرجعيته الاساسية ، الاجمالية لا التفصيلية، في الفلسفة النقدية الكنتية، فمن الواضح ابتداءً اننا نلتقي بهذا التعريف عند استاذ (شوبنهور)، اعني عند (كنت)[٢] الذي يقول عن الميتافيزيقا بأنها ((معرفة تتجاوز التجربة))[٣] . ولكن تحديد (شوبنهور) للغاية من هذا التجاوز ، اعني : ((اعطاء تفسير لذلك الذي تكون التجربة والطبيعة مشروطتين به)) يتخطى التصور الكنتي ويعود بنا - كما يبدو - الى ما كانت الميتافيزيقا التقليدية او ((الميتافيزيقا الدوغمائية)) باصطلاح كنت، تسميه مبدأ اول: فما وراء جملة مظاهر الطبيعة افترضت هذه الميتافيزيقا وجود شيء ما يكمن وراءها ويُعد اصلاً او علة او مبدأ لها .

والحق الذي يفرض نفسه علينا هاهنا هو وجوب ان نفرق بين الشروط التي تجعل التجربة ممكنة وتلك التي تجعل الطبيعة كائنة . ويبدو لنا ان (شوبنهور) في تعريفه هذا لم يفرق بصورة واضحة بين هذين الجانبين . ولكن عدم التفريق هذا ذو دلالة في غاية الاهمية وهي : ان (شوبنهور) في الوقت الذي ينضوي تعريفه هذا في تراث الفلسفة النقدية ، يحاول ان ينعتق منها او من حدودها المعرفية في هذا السياق ، سياق فحص طبيعة الميتافيزيقا وحقها في الوجود .

فاذا كان الامر يتعلق بشروط التجربة او المعرفة بعامة ، فمن المؤكد اننا نجد انفسنا مباشرة امام تصور (كنت) الخاص للميتافيزيقا، اعني ((ميتافيزيقا النقد)) التي تهتم بالكشف عن شروط المعرفة الممكنة، وهي شروط قبلية(غير مستمدة من التجربة وسابقة عليها بالتالي) وتصلح لان تكون موضوعاً للفاهمة البشرية.وهذه الميتافيزيقا لا تتجاوز حدود التجربة او عالم المظاهر، وإلّا فانها ستقع لا محالة في كل التناقضات الميتافيزيقية المعروفة، او في ما يسميه (كنت) باسم((نقائض العقل المحض)[٤] التي وقعت فيها الميتافيزيقا الدوغمائية التي كانت في موضع نقد شديد من طرف (كنت) حتى اتهمها بـ (التخبط العشوائي)[٥] لانها اوقعت العقل الانساني في نزاع مع نفسه ، نزاع وقف عائقاً امام تطور المعرفة ، وأخل بشرط اي معرفة يمكن ان تسير في طريق العلم الآمن، الطريق الذي شقته العلوم الطبيعية والرياضية في عصره ، بنظ (كنت)[٦] .

اما (شوبنهور) فيخرج عن حدود هذا التراث النقدي ، ويختلف عن استاذه في تحديد الغاية من البحث الميتافيزيقي الذي يروم الكشف عن ذلك الذي تكون ((التجربة والطبيعة مشروطتين به)) وتفسيره . وهذا يعني النظر في ما يجعل الطبيعة كائنة بوصفه شرطها بما يعادل القول : اصلها ومبدأوها او علتها كما ذكرنا . وانطلاقاً من هنا وعوداً اليه ، يختلف الفيلسوفان اختلافاً بيناً .

ولكن هذا الاختلاف ليس اختلافاً انطولوجياً، اعني : ليس اختلافاً في تقرير ((وجود)) هذا المبدأ او الاصل او ذاك ، وانما هو اختلاف في تقرير امكان معرفة هذا المبدأ او الاصل او ذاك ، وبالتالي حدود هذه المعرفة . ومن هنا تأتي

الاهميــة القصــوى للثنائيــة التــي يقــوم عليها المنظــور المعرفــي للموضوعات في الفلســفة النقديــة ، والتي يُعد النظر فيهــا فيصل التفرقة والاتفــاق بيــن الفيلســوفين النقدييــن ، فـ (كنت) يميــز فــي الموجــود بيــن ((الظاهــرة)) و ((الشــيء فــي ذاتــه))[٧] ، ((الظاهرة)) ما يظهر لنا من الاشياء بوســاطة صورنا الذهنية (افاهيمنا الفاهمية) ، اما ((الشــيء في ذاته)) فهو الشيء كما هو في ذاته مستقلاً عنا وخارجاً عــن صورنــا الذهنيــة. ان كل مــا ندركــه من المنضدة : شــكلها ، حجمها ، صلابتها ..... الخ يُعد بالنســبة لنا ، ظاهــرة ، اما المنضدة بذاتها، بمعــزل عن صفاتهــا (المدركة من قبلنا) فهي بمثابة ((الشــيء في ذاته)) ..... وهكذا . ومن هنــا أقرّ (كنــت) بعدم قدرتنا علــى معرفة ((الشــيء في ذاته)) ، فهو مجهول بالنســبة لنا ، نحن الــذوات العارفة ، ومعرفتنا مقتصرة على ما يظهر لنا من الاشياء .

وقد عدّ (شــوبنهور) هذا التفريق بين هذين القطبين في الموجود مأثرة (كنت) في الفلسفة قائــلاً ((ان مأثــرة (كنــت) تكمن في تمييزه بيــن الظاهرة والشــيء فــي ذاتــه))[٨] . ولكي يتبين للقارئ اهمية هذا التمييز وعلاقته بتحديد الموقــف مــن الميتافيزيقا ، لابد مــن التذكير ، هــذا اذا لم يكن من التوكيد ، ان ((الشــيء في ذاتــه)) كاصطلاح ، يختــزل كل موضوعات الميتافيزيقا المعروفة ويدل عليها :

فعندما نفكر في العالم بذاته لا في هذه الشجرة او تلــك ، او في هذا النهر او ذاك ، وفي النفس بذاتهــا لا في هــذا العلم او ذاك ، في هذا التخيل او ذاك ، وفــي الجمال بذاتها لا في هذا الشــيء الجميــل او ذاك ، وهكذا مــع الخير والحق .... الــخ ، ان هذا التفكير في ((الشــيء في ذاته)) بعيداً عن ((مظاهــره)) يدل على اننا نتخطى او نتجاوز الظاهر المحسوس ، ونفكر في شيء لا يصح ان يكون الا موضوعاً للعقل ، وبالتالي معقــولاً . وهذا هو ، في الحق مــن التدقيق في هــذا الاصطلاح ، المعنى الحرفي ((للشــيء فــي ذاتــه)) الــذي يعنــي : ((كائنــات معقولة Noumena)) .

وهــذا ما يــدل عليه ليــس التعريفيــن اللذين اوردناهما سالفاً، تعريف (شوبنهور) وتعريف (كنت) ، فحســب وانما ايضــاً المعنى اللغوي لكلمــة ((الميتافيزيقا)) التي تدل ، باعتبار انها ((مــا بعد الطبيعة)) كما ارســاها مترجمونا القدمــاء بدقة ، تــدل على التجــاوز . وكل هذه الدلالات تنطبق على موضوعــات الميتافيزيقا التقليديــة المعروفــة (الله والنفــس والعالــم) ، الموضوعات التي يعد النظر فيها ، والســعي للوصول الى كنهها ومن ثم الاعتقاد بها ، حاجة متأصلة في الموجود الانساني .

ولكن الصحيح الموثق ، مع ذلك ، هو ان هذه الميتافيزيقا النظرية ، ميتافيزيقا ((الشــيء في ذاتــه)) وموضوعاته ، هــي التي آثار حولها (كنت) غبار الريبة والشبهة عند اقراره ، اقراراً يســتند الى اسس معرفية ارستها فلسفته النقدية، بعــدم القدرة على معرفة طبيعة ((الشــيء في ذاتــه)) . وهذه الميتافيزيقا هي التي ســتحظى باهتمام ايجابي ملفت للنظر من طرف فيلسوف نقدي مــن طراز (شــوبنهور) وذلــك باقراره القدرة على معرفة ((الشيء في ذاته)) ، اي ((ذلك الذي تكون التجربة والطبيعة مشــروطتين به)) كما جاء فــي التعريف . والمعروف ان (شوبنهور) قد عيّن طبيعة ((الشيء في ذاته))

بـ ((الارادة)) ، ((الارادة الكونيــة)) التــي هي المبــدأ الآخر (لا العقل ولا المــادة) الذي تكون الموجودات كلها مشروطة به[٩] .

والحق انه من الضــروري ان نتدبر النظر في هذا المبدأ الميتافيزيقي الذي ردّ اليه (شــوبنهور) كل مــا هو موجود عند الكلام عن مســألة العلاقة بيــن الدين والفلســفة ، وموقفه منهمــا ومن الدين بصفــة خاصة . ان (شــوبنهور) ليس فيلســوفاً مثاليــاً (بــازاء او في مقابل الفيلســوف المادي) وارادتــه الكلية ليســت إرادة الهيــة ، وموقفه من الديــن ، مقارنة بالفلســفة ، موقــف ردّ الفرع الى الاصــل . ولكــن ، وكمــا اوضحنا فــي البداية ، ان تفلســفه في مســألة العلاقة بين الدين والفلسفة يقوم على الفصــل المنهجي بينهما ، وبعدهما من المعطــى التاريخــي ، انما الضــروري ، الذي لا يمكن الاســتغناء عنــه . وفي هذا الســياق ، يقدم (شــوبنهور) مــن براعة التحليل المتفلســف في ابعــاد هذه المســألة ، اجوده ، بحيــث يوحي بكل اتجاهاتها: اتجاهــات التوفيق والرفض والفصل، وقبــل ان يتبين لنا شــيء مــن التفصيل عن هذا ، وبخاصــة عــن ((الفصــل)) ، لننظــر الان الى حاجة الانسان الى الميتافيزيقا :

ثانياً: ضرورة الميتافيزيقا.

بحســب واقــع حــال تــراث الفلســفة النقدية ، نجــد موقفيــن متباينيــن ، وليس مــن الضروري ان يكونــا متناقضيــن ، الاول : ضــد الميتافيزيقا التي لم ترتق، بحســب (كنت) نفسه ، طريق ((العلم الآمن)) ، والثاني : موقف يؤكد على ان الميتافيزيقا ميل طبيعي في العقل الانســاني الذي تؤرقه اســئلة ولا يحظى بأجوبــة مرضية عنها . ومهمــا اختلفنا معها ، وأدرنــا لها ظهورنا ، فاننا ((سنعود ابداً الى الميتافيزيقا كما نعود الى الحبيبة التــي اختصمنــا معها))[١٠]، كما يقــول (كنت) بعبارته المليئة بالشغف .

ان هذا الموقف الذي يؤكد على الطبيعة التلقائية للعقل في ميله نحــو التفكير ميتافيزيقياً ، وتجذره في هذه الطبيعة بحيث يمكن القول انه قديم ((قدم العقل للانســان))[١١] ،كما يقول (كنت) ، اقول ان هذا الموقف هو الذي سيدافع عنه (شوبنهور) مكرســاً التأكيــد على حاجة الانســان الضرورية للميتافيزيقــا ، انما بتحليل فلســفي متفرد واصيل يكشــف عن تجليات وابعاد هذه الحاجة على نحو يمكــن ان يُعد بمثابة اعادة اعتبار للميتافيزيقا بعد النقد الذي تعرضت له ، وهو نقد حاسم بلا شك .

يؤكــد (شــوبنهور) علــى ((حاجة الانســان للميتافيزيقا)) . وهذه العبارة وضعها (شوبنهور) عنوانــاً لاحد فصول كتابه الرئيس ((العالم ارادة وتمثلاً))[١٢] . والحاجة هنا لا تعني اطلاقاً واحدة من الحاجات التي يمكن ان يستغني عنها الانسان او يســتبدلها بحاجــة اخــرى ، كلا ، فالحاجة هنا حاجــة ضرورية بحيث لا يمكن تصور الانســان من دونها طالما كان يفكر وقد عبرت هذه الحاجة الميتافيزيقيــة عن نفســها منذ البدء، بالدهشــة او التســاؤل الذي هو انسانوي بامتياز، فـ ((باستثناء الانســان))، يقــول (شــوبنهور)، ((لا يوجــد موجود يتســاءل عن وجوده الخــاص))[١٣] . وقد ربــط (شــوبنهور) ربطاً جوهرياً بين التســاؤل ونشــأة التفكيــر الميتافيزيقي ، علــى نحو يذكرنا بربــط الاغريــق (افلاطــون وارســطو) (بين الدهشــة ونشأة التفلســف) ومن هنا جاء تعريف شــوبنهور اللطيف غير المسبوق للانسان، اعني : ((الانســان حيوان ميتافيزيقــي))[١٤] ذلك لانه - اي الانســان - لا يكف عن التســاؤل عن معنى وجــوده ، ووجود العالم الذي يعيش فيه بوصفهما

لغزيــن يزعجــان الفكــر . وقد شــغل فك هذين اللغزين الانسانية باستمرار[١٥] .

ولكن ، يجب علينا ان نميز في الانسان نفسه بيــن ذلك الذي يدهــش ازاء الوجود اذ يرى فيه لغزاً بحاجة الى تفســير ، فيضع وجوده والعالم موضع التســاؤل باحثــاً عن معناهمــا وعلاقة احدهما بالآخر ، وبين ذلك الذي يسلم بوجوده بالضرورة . ان هذا التفريق بين نوعي الانسان: الميتافيزيقي واليومي، اذا جاز التعبير ، هو الذي سيفرض نفسه على فكر شــوبنهور وهو ينظر في الفرق بين رجال الفلسفة ورجال الدين، كما فرض نفسه على فكر السجستاني وهو ينظر في الفرق بين صاحب الحكمة وصاحب الشريعة . وسنفصل ونوثق في تفريق شوبنهو ، اما الآن ، فان من الضروري التوكيد على ان هذا التساؤل الذي يميز الانسان المتفلسف عن غيره يفترض انفصالاً او تضاداً بين الانســان والعالم ، وبقدر درجة هــذا الانفصــال تتعين حــدود او مديات التســاؤل بحيث نستطيع القول ، تبعاً لذلك ، انه كلما كان الانفصال كبيراً والتضاد شــديداً كلما كان التســاؤل اكثر تجريداً وعموماً حتى نصل الــى التســاؤل الميتافيزيقي الــذي يطال التخوم القصــوى للوجود ((ما الوجود ؟)) ، الســؤال الذي يشــرف على ديمومة التفكير الميتافيزيقي ويحرســه . وطالما كنا في ســياق التوكيد على حاجة الانســان الضرورية الى هــذا النوع من التفكير ، فلابد لنا من الاعتبار الى ان الموجود الانســاني معرّض للألم والشر والموت ، الامر الذي من شأنه ان يدفع به الى التساؤل عن المبدأ الكامن وراء هذا البؤس الكلي في العالم[١٦] .

والحــق ، لقد اولى شــوبنهور هــذه الاحوال الوجوديــة المأســاوية اهتماماً كبيــراً ، فاحصاً علاقتهــا باتجاه الفكر نحو التأمل الميتافيزيقي . فتساؤل الذات الانسانية يصبح اكثر جدية عندما تجد نفسها امام حضرة الموت ، وادراكها ، من ثــم ، تناهي الوجود وعــدم جدوى اي جهد[١٧] . اذ لو كانت حياتنا تســتمر الى ما لانهاية ، ومن دون الم ، فان الانســان لا يســعه ان يسأل لماذا يوجــد العالــم وما هي طبيعته بل ان كل شــيء يؤخذ على انه امر طبيعي مألوف[١٨] .

والحــق الذي يشــهد عليه حال الانســان ، ان الشــعور بالتناهي عند مواجهة الموت وما يثير من ألم وشــقاء للانسان الراغب دوماً بالخلود ، من ابرز الوقائع الانســانية التــي تغذي الحاجة الى الميتافيزيقا ، تلك الحاجة التي عبرت عن نفسها بصور عديدة منها المذاهب الميتافيزيقية، والاديــان التي هي ، بنظر شــوبنهور وبلفظه ، ((ميتافيزيقا شــعبية)) . فـ ((المعابد والكنائس والهيــاكل والمســاجد بجلالهــا وفخامتها ، في كل المعمــورة وفي جميع العصــور ، انما هي دليل على حاجة الانســان الى الميتافيزيقا))[١٩] كما يقول شــوبنهور ، وهو قول يفرض البحث في علاقة الفلســفة بالدين ، هل هما متفقان ام مختلفان ، هل هما متصلان ام منفصلان ؟ ولكن قبل الاجابة عن هذا السؤال ، سيكون من الحق بنظرنــا بيان حاجــة الانســان الضرورية الى الديــن ، بعد ان اوجزنا حاجتــه الى الميتافيزيقا التي هي ، في حالة المقاربة مع الدين الفلســفة كما يجدر بنا ان نذكر .

الحاجة الضرورية للدين .

الديـن متجذر في حياة النـاس ، وفي تاريخهم، وفـي طبيعتهـم ، وليـس مـن الصعب بيـان هذا التوكيـد العام مـن طرف اي متديـن متنور وهو يحاور المتفلسـف الذي لا يرى الا العقل وسـيلة لمعرفة العالم او لتفسيره في أقل تقدير .

ان هـذا التجـذر واضـح جلـي مـن أصالـة الميتافيزيقا ، وبالتالي الفلسـفة ، في فكر الانسان. فـاذا كانـت الميتافيزيقا حاجة ضرورية بالنسـبة للوجود الانسـاني الـذي يتخطى دائماً بأسـئلته عـن معنى وجوده والعالم ، المعطى من الاشـياء المألوفـة ، وهـي حاجـة كمـا قلنـا ، ضرورية، نابعـة مـن طبيعة الانسـان نفسـه ، الامـر الذي أدى بشـوبنهور الى القول ان ((الانسـان حيوان ميتافيزيقي)) ، واذا كان الدين ، كل دين ، معبراً عن هـذه الحاجة الضرورية وممثـلاً لها، بحيث يمكن القول مع شوبنهور ان الدين ((ميتافيزيقا الشعوب)) ، نقول اذا كان الامر على هذا النحو ، فان تجذر الدين في كينونة الانسان بكل ابعادها ، شيء بيّن بنفسه لا يحتاج الى كثير عناءٍ وتوكيد .

علـى ان المسـألة لا تتعلـق باقـرار وقائـع ، فاعلـة في الحياة ، وحادثة فـي التاريخ ..... الخ، وانمـا هـي ، فضـلاً عن ذلك ، مسـألة تسـويغ وخطـاب..... الخ . ومن هنا ، نرى الفيلسـوف شـوبنهور ، يتبسـط في عرض الرؤيـة المغايرة التـي تريد هي الاخـرى تثبيت الاعتقـاد باصالة الحاجة الانسـانية الى الدين ، وتكريسه . وهكذا ، يمكننـا القول ، من باب الجدل الذي يرد ، ولابد ، في اي خطاب جدي في مسـألة العلاقة بين الدين والفلسفة : ((حتى لو اكتشفنا الفلسفة الحقّة ، فان الديـن لا يمكن ان يختفي مـن العالم ، اذ لا يمكن ان يكون هناك نظام ميتافيزيقي واحد لكل الناس، واسـتحالة ذلك انما تأتي من الاختلافات الطبيعية في القدرة على التفكير بين فرد وآخر ، فضلاً عن الاختلافات التي تخلقها التربية))[٢٠] .

لقـد قـال افلاطون ، وكان محقاً فـي قوله ، ان ((الكثرة لا يمكن ان يكونوا فلاسفة))[٢١] ولكنهم بل والبشـرية جمعاء ، ((بحاجـة ضرورية الى تفسير للحياة . وهذا التفسير، لابد له من ان يكون، بـدوره ، متفقاً مع الادراك الشـعبي العام))[٢٢] . ولهـذا الغرض المـزدوج اتى مؤسسـو الديانات بدياناتهـم ، اتوا ((من اجل الانسـانية الواسـعة الارجاء))[٢٣] .

والحق ، طالما ان المسـألة تتعلق بالدين ، فلابد من الاعتبار لعامة الناس . وبحسـب الواقع ، فقد اولى شـوبنهور هـذا الاعتبـار كل اهتمام ممكن وهو يتفلسـف في طبيعة كل من الدين والفلسفة . وفي هذا الصدد ، يقول شـوبنهور : ((اذا اردت ان تبلـور رأيـاً حول الدين ، فان عليـك دائماً ان تضع في الاعتبار طبيعة الجمهور العامة التي من اجلها قُدّر الدين))[٢٤] .

وهـذا لا يعنـي اهميـة عامـة الناس بالنسـبة الى فهـم طبيعة الدين وغاياته كمـا يبدو واضحاً فحسـب ، وانما يدل ايضاً على الاهمية القصوى التـي يمثلها الدين في حيـاة هؤلاء الناس ، والقوة اللامتناهيـة التأثيـر فـي نمـط عاداتهم ومسـار سـلوكهم . وهذا امر لا اجلى منه بيان في تاريخنا الاسلامي الذي لابد وان اعتبره (شوبنهور) وهو يقـول ، مؤكداً على قوة وعظمـة القرآن :((كان هذا الكتاب ..... كافياً لانشاء دين للعالم ولارضاء الحاجة الميتافيزيقية لملايين لا تحصى من الناس لاثنتي عشـر قرنـاً، وليصبح الاسـاس لاخلاقهم ولازدرائهم الكبير بالموت))[٢٥] .

والحـق، لابـد للمرء مـن ان يتفهـم متطلبات الناس، وبحسـب مستوى ادراكهم ، واول ما يلبي

هذه المتطلبات ، ويجعل الناس يشعرون بالقيمة العليا للحياة هو الدين . واستناداً الى هذه الاهمية يتمثل (شـوبنهور) الرؤية المغايرة ، ويذهب بهـا الـى ابعد ، اعني : الـى حيث الاطلاق في الاحـكام فيقول : ((ان الدين ..... حق ، وهو الاكثر اهمية من جميع الحقائق الاخرى)) .

والواقـع ان هـذا الحكم الصادر عـن مدافع عـن ميتافيزيقـا الكثـرة التي هـي الدين ، ضد ميتافيزيقـا القلـة التي هـي الفلسـفة ، لابد من ان يطرح مسـألة الاحقيـة الواحدية في الوجود التـي ابتلـى بها تاريـخ الناس والعباد ، شـرقاً وغربـاً ، ومقاصد الدين نفسـه الذي هو رحمة للعالمين. اما المسـألة التي يطرحها شوبنهور ، ترتيباً على هذا المقصد واستناداً الى هذا الحكم ونظائر له بمعناه، فهي مسألة البدائل ، اعني: لِمَ لا يكون الديـن بنظر هذه الرؤية المغايرة بديلاً عن الفلسفة .

جدلية الأصل وتبادل المواقع وأثارها.

اذا نظرنا الـى ما هو واقع بالفعل ، فاننا نجد ان الديانات في حياة الغالبية العظمى من الناس الذين لا يسـتطيعون ان يفكروا بانفسـهم، تحل محـل الميتافيزيقـا وتشـغل مكانهـا[٢٦] . وذلك لانهـا ((تزودنـا بما يرضي ، ارضـاءً كافياً، متطلبـات البشـر الميتافيزيقية التـي لا زوال لها))[٢٧] .

والحق، ان الديانات ، سـواء في امور الحياة العمليـة ، ام فـي امـور المسـائل العقائديـة ، تمثـل في عيـن العامة من النـاس ((مثل نجمة مرشـدة))[٢٨] . ان الانخراط في حياة الفضيلة، والاحسـاس بالامان ، و ((الشـعور بالارتياح في خضم احـزان الحياة الثقيلة))[٢٩] كما يقول شـوبنهور بمزيد مـن الاعجـاب ، التي يجدها المرء فـي الديانات ، تجعل مـن هذه الاخيرة، مرشـحة الى ان تكـون بديلاً ناجعـاً لكل رؤية ميتافيزيقية تسـعى ((في سـبيل السـعادة)) ، التي هـي بعبارة الفارابي ،السـكون الى جانب ((الحـق)) لا الحقيقـة الابديـة اللازمنية التي تتحدث عنها الفلسفة .

فالديـن ، شـأنه شـأن الميتافيزيقـا ، يجعـل الانسـان((يعلو على نفسـه وعلـى وجوده في الزمـن))[٣٠] ، كمـا يقـول شـوبنهور بمنتهى الدقـة والايجـاز، واذا كان هناك مـن يعادل ، اسـتناداً الى هذا القول ونظائـره بالمعنى ، بين كفتي الميـزان ، فان صاحـب الرؤية المغايرة يمكنه ان يحتج بان ((الحقيقة الفلسفية الخالصة تبقـى معقدة على نحو لا متناهٍ ، وربما لا يمكن الوصـول اليها))[٣١] . وبحسـب وقائع الامور لا مخاييلهـا ، فان على الذين يقاربون بين كفتي الميزان ان يقدموا كشـف حسـاب ، فماذا لديهم فـي وسـائل الدعم غير مجموعة من الفلاسـفة البؤساء الذين تنخر في حصاد مساعيهم معاول من التناقضات و ((التخبط العشوائي)) (عبارة اطلقهـا كنت على الدوغائيين من الميتافيزيقيين الذيـن لـم يهتـدوا ، ولا يمكن ان يهتـدوا ، الى حقيقـة متفق عليهـا)[٣٢]. اما الآخـر، فان لديه من الوسـائل اغناها ومـن العقائـد انفذها، قوةً فـي التأثيـر والنفوذ والاتسـاع، لديـه : الوحي والمعجزات والانبياء والرسل والتراث ، ودعم الحكومـات والمراتـب العليا ، وذلـك الامتياز الـذي تفوق قيمته كل قيمـة ، ألا وهو : ((ختم عقائده علـى الذهن في مرحلة الطفولة ، بحيث تصبح هذه العقائد اشـبه بافكار فطرية))[٣٣] ، في اذهان العامة .

ان الدين بديل لا غنى عنه عن الفلسفة في حياة العامــة ومســتوى ادراكهم وثقافتهــم ، بديل يلبي حاجاتهم الميتافيزيقية التي منها : الاعتقاد بوجود إلــه خالق لهــذا العالم ، والاطمئنــان على وجود عالم آخر بعد الموت يحقق فيه الموجود الانساني رغبته بالاســتمرار في الوجــود ، وهما اعتقادان ضروريــان ولازمــان لكل دين ، بل ولكل نســق ميتافيزيقــي يريد ان يكون حيّاً ومتواصل الوجود الاعتقادي في ضميــر وعقول العامة من الناس . والحــق الــذي علينا ان نذكره لشــوبنهور في هذا الســياق هو ان هذا الفيلســوف، فيلسوف الارادة الغاشــمة لا الربوبية الباصرة، قد اولى، مع ذلك، الاعتقــاد الثانــي اهمية كبرى ، وفــي هذا الصدد يقول :((ان الدعامة الدائمة الاقوى للاهتمام الذي يحيــي المذاهب الدينية والفلســفية ، انما تكمن في الاعتقاد بنوع معين من الوجود بعد الموت))[٣٤] . بل ويذهب الى ابعد من ذلك بكثير، وهو ينظر في علاقة الاعتقاد بوجود الاله بالخلود ، عندما يؤكد على ان لا معنى لأي وجود للاله من دون الايمان بالخلود بعد الموت[٣٥] .

علــى اي حال، فان الرغبة في الاســتمرار في الوجود بعد الموت ، حاجة من الحاجات الانسانية الميتافيزيقيــة التي لا تُرد ، وتطلب ارضاءً مطلقاً غيــر منقــوص ، اي كامل ونهائــي ، ((لان افق الافكار الانســانية لابد لها مــن مرجعية ، وان لا تبقــى الــى مالانهاية))[٣٦] ، وليس للانســان تلك الملكة التي تزن الاســباب وتميز بين ما هو خطأ ومــا هو صواب . ((ولا فائــدة ترجى من الكلام معــه عن قناعــات عقلية)) ، فحاجاتــه الطبيعية كثيــرة ، ولا وقــت لديــه للخــوض فــي مثل هذه الابحــاث وضرورة التعليم الذي تفترضه ، ولابد لــه ، من ثــم ، من ان يعــود الى الايمان بســلطة مرجعيــة . ((واذا قُدّر لفلســفة حقيقيــة)) ، كما يزعم المتفلســفة المتفاخــرون ، ((ان تأخذ مكان الدين ، فان تســعة اعشــار البشــر ، على الاقل ، سيتلقونها ولابد على انها سلطة مرجعية ، الشيء الذي يعني ان هذه الفلســفة ستكون امراً من امور الايمان))[٣٧] لا امراً من امور العقل . وحسبنا ان نرى في هذا الذي وضعه شوبنهور على لسان من يدفع بالفلسفة الى ان تكون ، بالنهاية ، ديناً ايمانياً إن انتشــرت فمالت على اكتافها عامة الناس، ان نــرى فيه معياراً حاكماً من شــأنه ان يقول : كلما كانت الفلســفة اكثر شيوعاً بين العامة من الناس، كلمــا كانــت تدل علــى انهــا اعتقــادات ايمانية ، بكلمات اخرى ، ان شــيوع الفلســفة بين الناس ، يدل على انها امر مــن امور الايمان وهذا معيار غير محصل عقلاً ، وان كان مبرراً تاريخاً .

على اي حال من احوال الرد او المناقشة ، فان مــا هو اكثر اهمية وتوكيداً من طرف الفيلســوف شــوبنهور انما هو التساؤل المترتب على اقتراح ان يكــون الدين بديــلاً عن الفلســفة بالضرورة ، وعلى التوكيد بان الدين هو المعطى (التاريخي) الميتافيزيقي المتفق مع متطلبات الناس وادراكهم، واعنــي : الا يكون هــذا المعطى بمثابــة المعيار لكل فكــر ، والحد لكل تأمل نظري انســاني آخر بحيث يمكن القــول ((ان ميتافيزيقا القلة ما تلبث ان تكون ســوى اثبات وتعميق وشرح لميتافيزيقا الكثرة))[٣٨].

وهــو أمــر أدى ، وســيؤدي ، لا محالة ، الى عرقلة قــوة الذهن الانســاني الســامية من النمو والتطور[٣٩]، وحســبي بشوبنهور في هذا السياق لا في غيره ، قد اعتبر كثيراً ، وتأمل بألم طويلاً مــا ترتب علــى جنوح ثقافــة الغرب المســيحية عندمــا وظفت الفلســفة خادمةً للاهوت في اشــد تاريخها بؤساً وظلاماً . والحق ، اذا كانت وظيفة الفلســفة، ومن ثــم كل تفكير انســاني، لا تخرج

عن الشـرح والتفسـير للنص الديني وحسب ، الا يعني هذا((النزر اليسـير جداً من التسـامح Tolerance والاتسـاع المريـع للتعصـب Intolerance))[٤٠] لنفكر باتهامات الهرطقة التي كالتها الكنيسـة علـى الناس من كل حدب وصوب ، والحروب الدينية ، واحراق برونو، و اذلال جاليلـو؛ ((أنعُـد كل ذلـك ، في يومنا هذا، شيئاً من الماضي وحسب ؟))[٤١]، سؤال طرحه شـوبنهور ، ناقداً على سبيل الاستفهام، زمنـه وزمـن اسـلافه فـي عصـور ثقافتهم المظلمة، وقد يسأله كل واحد منا ، نحن البشر، في القرن الواحد والعشرين ، او الصفر،اعني: فـي كل زمان ، طالمـا كان الناس وما زالوا ، فـي كل مللهـم وفرقهم ، لم يتفقـوا على اجابة مرضية على سؤال الاصل : ما الاصل، الدين ام الفلسفة ؟

فـي الرد الجدلـي ، الممكن ، الذي قدمه على فكـرة البديل الديني للفلسـفة يقول شـوبنهور: ((هكـذا يأخـذ السـاق الخشـبي مكان السـاق الطبيعـي))[٤٢] . والواضـح الجلـي ، ان هـذا الـرد او التعليـق ، يطرح مسـألة الاصل على ابوابها . ويبدو ان شـوبنهور يقر ، شـأنه شأن الكثير من الفلاسـفة المحدثين ، (ينظر هيجل وكونت..... الخ) ((ان الدين في كل مكان شكّل بداية الفلسفة))[٤٣] . ومع ذلك فهو يؤكد على ان ((الساق الطبيعية قد سبقت ، كقاعدة او معيار، الساق الخشبية))[٤٤] .

مشيراً الى ان هذا هو الاختلاف الوحيد بينهما وهو تأكيد غامض، عسـى ان يفك ألغازه الآتي من وضوح القول والمعنى وهو :

أن القـول بـان الميتافيزيقا حاجـة ضرورية للانسان ، وان الميتافيزيقا هي التي تميز الانسان عن انواع جنسـه من الكائنات الحية الاخرى ، برسم التعريف اللطيف القائل ((الانسان حيوان ميتافيزيقـي)) ، والقول بـان الدين : ميتافيزيقا الشـعوب ، ميتافيزيقـا العامة مـن الناس ، في مقابـل ميتافيزيقـا القلـة ، او النخبـة التي هي الفلسفة ، كل هذا يعني : ان الميتافيزيقا برمتها ، فلسفة كانت ام ديناً ، من اصل انساني . وبحسب الحق وتاريخ الفكر الغربي ، فان القول بإنسانية الديانات ، اياً تكن ، وبالطريقة والسـياق اللذين طـرح فيهما هذه الفكـرة ، اطروحة اتفق عليها مفكروا عصر التنوير ودعاته . والمصطلحات التـي شـاعت في لغـة الخطاب التـي اعتمدها هؤلاء المفكرون في النظر في الظاهرة الدينية ، تدل على هذه الاطروحة وتفسرها ، واشهر هذه الاصطلاحات ، على سـبيل المثال لا الحصر ، ((اللاهوت الطبيعي)) .

وكان ديفيـد هيـوم (١٧١١ – ١٧٧٦) قـد اسـتخدم ، قبـل مفكـري التنوير ، ربمـا ، في كتـب له ، عناوين مثـل ((محاورات في الدين الطبيعـي)) و ((تاريخ الديـن الطبيعي)) . و ((الديـن الطبيعـي)) ، اصطـلاح يدل على الدين منظوراً إليه من اصله البشـري في مقابل الدين المُنزل او الموحى به .

هذا ، ويشـارك شـوبنهور كثيراً من مفكري عصـره الغربييـن في الحكـم علـى ان العقائد المتضمنـة فـي النصـوص الدينيـة لا تنم عن فكـر متطـور ، ولا تعبر عن سـمات تدل على العقـل الانسـاني وهو فـي مرحلتـه المتطورة التـي وصل اليها ، بل هـي اقرب ما تكون الى بداية التفكير الانساني ، وفي هذا يقول ((لاشك

ان العقائد الدينية المؤسسة على مجرد السلطة والمعجزات والوحي ، انما هي عقائد لا تلائم إلاّ طفولة الانسانية))[٤٥] . والحق ان هذا الربط بين الديانات ((وطفولة الانسانية)) ، كان شائعاً في ذلك العصر ، فنجده عند اوغست كونت (١٧٩٨ – ١٨٥٧) في قانون الحالات الثلاث الشهير ، الذي قرأ فيه تاريخ تطور العقل الانساني الذي يبدأ باللاهوت (الطفولة) وينتهي بالوضعية (النضج) ومروراً بالميتافيزيقية (الشباب) . ونجده بعد ذلك عند فويرباخ (١٨٠٤ – ١٨٧٢) وماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣) وآخرين .....، والمؤكد المسنود بمعطيات الوقائع من تاريخ الفكر الغربي بعامة ، ان الذي يقارب بين الدين ومرحلة الطفولة من عمر الانسانية ، يربط بين الدين والتطور العلمي ، ربطاً عكسياً لا ربطاً مطرداً بأي وجه . ومن هنا ، وعلى هذا النحو ، يأتي ربط شوبنهور بين ((الجهل)) والدين (وسيتضح فيما بعد : ان المقصود من الدين هنا هو الدين المسيحي – القروسطي وحسب) . فيقول: ((ان مقداراً معيناً من الجهل العام هو شرط تكوّن جميع الاديان، انه العنصر الوحيد الذي من خلاله تستطيع الاديان الوجود))[٤٦] . ولا يترك شوبنهور مجالاً سائباً للشك في ما يقصده بـ ((الجهل العام))، انه الجهل بالعلوم والفلسفة، واذا قُدر الانتشار لعلم ، والعلوم الطبيعية (بما فيها: الجيولوجيا Geology = علم طبقات الارض)، والتاريخ، ومعرفة البلدان والشعوب، وقُدّر للفلسفة اخيراً ان تقول كلمتها، فان العقيدة المقامة على الوحي والمعجزات - يقول شوبنهور-لابد ان تختفي[٤٧] . وستأخذ الفلسفة ، في نهاية المطاف، مكان الدين .

ويلتفت شوبنهور الى التاريخ العلمي في اوروبا ليجد فيه هذا التحول ، ففي اوروبا الغربية بدأ يوم العلم والمعرفة في نهاية القرن الخامس عشر مع ظهور حركة النهضة (عند الافلاطونيين كما يقول) ((واشرقت الشمس هذا اليوم عالياً في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وكان غنياً بنتائجه))[٤٨] . وقد اتاح هذا التحول لفلاسفة القرن الثامن عشر ، فرنسيين وانجليز، القدرة على اتخاذ مواقف عدائية مباشرة ضد الدين[٤٩]. ويبدو ان موقف شوبنهور ، في هذا السياق ، لا يختلف عن الموقف العدائي لهؤلاء الفلاسفة ، فلاسفة عصر التنوير من الدين . على ان من الانصاف لشوبنهور ، ولأي فيلسوف غربي آخر، ينظر في الظاهرة الدينية ، ان نميز بين دين ودين ، ونميز الدين الذي يقصده عن الديانات الاخرى . وسيتبين هذا فيما بعد ، اما الآن فان من الانصاف للحق ان ننظر في هذا الربط الذي اقامه شوبنهور بين الدين وجوداً وتطور المعرفة العلمية . والحق الذي لا ينكره غيرنا علينا هو ان هذا الربط يفتقد الى الحس التاريخي ، فتاريخية التاريخ العام للدين والعلم يبين لنا هشاشة هذا الربط ولا ضرورته ، وإلاّ كيف نفسر تزامن التمسك الظاهر التشدد بالدين مع التطور العلمي الهائل في هذا العصر ، عصر المعلوماتية ، هذا اولاً ، وثانياً ، انه يفتقد كذلك الى حكمة الاستدراك في نتائج النظر في مسائل من هذا القبيل ، وفي القمة من هذا الاستدراك ، ان التطور العلمي في النظر الى الكون قد يؤدي الى استئناف النظر في معقولية الحقائق الدينية كما هو حاصل اليوم، وإلاّ كيف يمكننا ، وبأي معقولية منصفة ، ان ننكر النظر الصحيح الممكن في علاقة نظرية الانفجار العظيم بـ ((حدوث الكون في الزمان والمكان)) !

اما بالنسبة للديانات ، والاعتبار الذي يجب ان نضعه بين دين ودين ، كما هي معروفة في التاريخ : بوذية ، يهودية ، مسيحية ، فهو امر لا يمكن لاي عرض او نظر في موقف شوبنهور من الدين ان يتجنبه . والحق الذي

يجب ان يُذكر لشـوبنهور في هذا السـياق ، هو انه قد اولـى الجانب الاخلاقي في هذه الديانات الاهميـة القصـوى، فاننا نجـده اولاً يجمع كل الديانـات على طاولة المبادئ الاخلاقية قاسـماً مشـتركاً فيها ، فيقول: ((ربمـا يكون العنصر الميتافيزيقي في جميع الديانات عنصراً خاطئاً، امـا العنصر الاخلاقـي فيها كلهـا فهو عنصر صحيح ، ويمكن اسـتخلاص ذلك من واقعة ان الديانات كلها غير متفقة في ميتافيزيقاها،ولكنها متفقة بخصوص مبادئها الاخلاقية))[٥٠] . وهذا كلام واضـح ليس بحاجة الى مزيد بيان ، ولكن المهـم ان نخرج من القيم الاخلاقية المشـتركة في الديانات، قيمتي : التشـاؤم والتفاؤل ، اللتين وضعهمـا شـوبنهور ، وهـذا ثانيـاً ، معياراً لتمييز دين عن دين .

إن الاختلاف الاساسـي بنظـره ، بين جميع الديانـات لا يتعلـق بواقـع نظرتنـا التاريخيـة العقائديـة اليهـا ، اعني فيما اذا كانت توحيدية او شـركية ، فيمـا اذا كانت تنكـر وجود خالق مفـارق وتؤمن بوجود محايث لالـه في الكون او العكس ، كلا ، الاختلاف الاساسـي هو فيما اذا كانـت متفائلـة ام متشـائمة . اي فيمـا اذا كانـت ترى ان وجود العالـم قائم بذاته وبالتالي يسـتحق الاطراء والتثمين ، او تنظر الى العالم على انه شيء ما لا يمكن ان يتصور الا بوصفه نتيجـة لآثامنا ، بما يعـدل القول ان لا ضرورة فـي وجـوده[٥١] . واسـتناداً الى هـذا المعيار ، يميز بين المسيحية والديانات الاخرى ، فيقول: ((ان القوة التي بفضلها اسـتطاعت المسـيحية ان تتغلب علـى اليهودية ، الاولى ومن ثم على الوثنيـة الاغريقية والرومانيـة ، انما تكمن في تشاؤمها ، اي في اعترافها بان حالنا الانساني ، هو حال بؤس وخطيئة ، في حين كانت اليهودية والوثنيـة متفائلـة))[٥٢] . وليس بـوارد في هذا المقـام تفصيل علاقة هذا المعيار برؤية فلسـفة شوبنهور للوجود ....

اما التفضيل بيـن دين ودين ، فمعروف لدينا اهتمام شـوبنهور بالديانة البوذية التي رأى فيها اقرب الديانات الى فلسفته ، وفي هذا يقول : ((اذا اخـذت بنظر الاعتبار نتائج فلسـفتي معياراً للحقيقـة ، فانا ملزم بان امنح البوذية تفوقاً على بقية الديانات الاخرى))[٥٣] . ثم يحتفل بالبوذية ونفسه ايما احتفال وهو يجد هذا الاتفاق مع اكبر ديانة في العالم نفوساً ، قائلاً : ((انه لامر مريح بالنسبة لي وانا ارى فكري وهو في هذا الاتفاق الكبير مع ديانـة يعتنقها غالبية الناس في العالم كديـن))[٥٤] . فألا يعنـي هذا الاحتفال الذي لا يخلو من الاحسـاس بنشوة الانتصار ، انتصار ميتافيزيقا الكثرة او الشـعوب ، على ميتافيزيقا القلة او النخبة !!! .

علـى ان الحـق الـذي علينا ان نذكـره ، في هـذا المقام الـذي نحن فيه ، هـو ان الذي جعل البوذية العقيدة الاقرب الى شـوبنهور وفلسـفته التي مزجت بين فكر الشـرق وفلسـفة الغرب، هو ان الفيلسـوف نظـر الى البوذيـة على انها الديانـة التي لـم تتوسـل ، لاثبـات عقيدتها*، بالمعجـزات والوحـي ، وانمـا بتلـك الملكـة الحدسية Intuitive الاكثر قوة وعظمة ، والتي بواسطتها ، لا بواسـطة المعجزات والوحي ، اسـتطاع البوذيـون – البراهمانيـون ((ادراك الوجـود الباطنـي للطبيعة بطريقـة اكثر تميزاً وصفاءً ونقاءً ، ولهذا فقد كانوا في وضع يسمح لهم بـان يرضوا الحاجة الميتافيزيقية على نحو اكثر غنـى بكثير))[٥٥] . وبفضـل هذه الملكة الحدسـية فـي المعرفة عند الاسـلاف البدائيين

من البراهمانيين ، تأصلت التصورات الانسانية الراقية التي استقرت ، فيما بعد ، في نصوص اوبينيشاد الفيدا[٥٦] .

من هنا تتبين ضرورة التمييز بين الديانات عند النظر في موقف الفيلسوف (والفيلسوف الغربي على وجه التحديد) من الظاهرة الدينية . فمسألة العلاقة بين الفلسفة والدين لا تطرح من منظور شوبنهور عندما يكون الدين هو الديانة البوذية، ولكنها تطرح بحدّة وإلحاح عندما يكون الدين هو الديانة اليهودية او المسيحية او الاسلامية . بكلمة اخرى لا تخشى ، لاهميتها بنظرنا ، من التكرار: ان مسألة العلاقة بين الفلسفة والدين لا تطرح إلّا عندما يكون الدين ديناً منزلاً يقوم على الوحي والمعجزات نظير هذه الديانات التوحيدية الثلاث. ومن هنا يأتي تركيز الفيلسوف ، على الفرق المنهجي بين الفلسفة والدين ، وهو ينظر في مسألة العلاقة بينهما لابد ان يتضمن او يؤدي الى اقرار الفصل بينهما ، مثالاً من الشرق ، ونتجه الآن الى بيان معطياته عند شوبنهور مثالاً من الغرب .

المبحث الثاني: الفصل بين الفلسفة والدين وآثاره وتقييمه.

لقد مر بنا الكلام عن ميتافيزيقا القلة او النخبة ، التي هي الفلسفة ، وميتافيزيقا الكثرة او العامة ، التي هي الدين . صحيح ان الحقيقة التي تجتمع عليها كل ميتافيزيقا وتحاول الوصول إليها او التعبير عنها ، ((تلك الحقيقة التي شعر بها كل الناس بعمق وألم ، والتي نفذت وولّد سريانها فيهم الحاجة الى الميتافيزيقا))[٥٧] ، حقيقة واحدة ، إلاّ ان هذين النوعين من الميتافيزيقا يشكلان بالفعل نسقين مختلفين بالطبيعة ويجب الفصل بينهما . المبدأ الاساسي الذي يقوم عليه هذا الاختلاف ، ومن ثم الفصل ، بين هذين النسقين الميتافيزيقيين، هو ان النوع الاول يجد مرجعيته ((في ذاته)) في حين ان النوع الثاني يجد مرجعيته ((خارج ذاته))[٥٨] .

والمقصود من هذين التعبيرين الاصطلاحيين هو ان النسق الميتافيزيقي الاول يجد اصله في ((العقل)) ويقوم على الحجة والبرهان منهجاً خاصاً به ، لذلك فهو يتطلب ، كما يقول شوبنهور، التأمل والثقافة والتفرغ ، ولهذا فهو لا يلائم ولا يكون مقبولاً الا من عدد محدود من الناس ، بل((ولا يمكن ان يظهر او يؤكد وجوده إلاّ في حال حضارة متقدمة))[٥٩] . اما النسق الميتافيزيقي الثاني فيجد اصله في ((الوحي)) ويقوم على التسليم او ((الايمان)) منهجاً خاصاً به ، ولذلك فهو السائد عند الغالبية العظمى من الناس ((الذين يفتقدون الى القدرة على التفكير)) ويعتمدون الايمان لا الحجة العقلية Reasons . وهذا النسق معروف باسم الدين ، كما ذكرنا ، ((وهو موجود عند جميع الامم بلا استثناء ، بما في ذلك الشعوب البدائية))[٦٠] . والسلطة المرجعية في هذا النسق ، اي ((الوحي)) ، ((تترسخ بالآيات والمعجزات))[٦١]، التي يتخذها حجة اقناع ضد الزائغين من غير المؤمنين والشكاك .

نسقان يشتركان في كونهما ميتافيزيقيان ، ويختلفان في كون اصل اولهما ((العقل)) وثانيهما ((الوحي)) ، وفي كون اولهما يخاطب القلة القادرة على فهمه ، وثانيهما يخاطب الكثرة بحسب فهمها . ونحن اذ نكرر او نذكر بما يختلفان فيه بخاصة ، فانما نريد التوكيد على ان النظر في مسألة العلاقة بين الفلسفة والدين لا يمكن ان يتجاهل هذه المعطيات التي ذكرناها سواء أكان هو شوبنهور او الكندي او

ابن رشد ..... الخ. فالمقابلة بين ((العقل)) و ((الايمان)) من جهة ، و ((الفلسفة والدين)) من جهة اخرى وعلى التوالي ، وتقسيم الخطاب المناسب على خطاب للخاصة هو البرهان ، وخطاب للعامة هو الجدل او الخطابة ، كله امر معروف في الفلسفة الاسلامية ، وقد زاده ابن رشد ايضاحاً وبياناً في مؤلفه الشهير ((فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال)). اما ما يشتركان فيه ، اعني : ((الميتافيزيقا)) التي تجمع الفلسفة والدين عند شوبنهور ، فقد قدمنا بياناً لضرورة الميتافيزيقا، وتوكيداً لاهميتها، بالنسبة للانسان بوصفه انساناً ، وتذكيراً بالاصل الانساني للميتافيزيقا بنوعيها . وفي هذه الحيثية يختلف الفريقان اشد اختلاف ، الفريق الغربي ، في عصر الحداثة والتنوير، الذي منه شوبنهور ونيتشه ، بعد فولتير وديدرو، والفريق الشرقي، بلا تمييز بالنوع ، في العصر الاسلامي الوسيطي ، ومنه السجستاني وابن رشد بعد الكندي والفارابي .

على اي حال ، فان ما هو اكثر اهمية من ذلك من حيث البحث عن الاصالة في الفكر، هو نظر شوبنهور في طبيعة الخطابين الميتافيزيقيين الديني والفلسفي . والحق ، ان ما يحسب لشوبنهور متفلسفاً في مسألة العلاقة بين هذين الخطابين ، هو الاتساق في رؤيته بين مرجعية النسقين الميتافيزيقيين وطبيعة خطابهما محققاً بذلك فصلاً بيناً واضحاً بينهما. فبما ان اصل النسق الثاني هو ((الوحي))، وخطابه موجه الى العامة من الناس لا الى خاصتهم ، فقد جاء خطاباً يغلب عليه الاسلوب او المعنى المجازي الذي يتفق مع ادراك العامة ومرضاتهم .

ولهذا تكثر في هذا الخطاب القصص والحكايات والمرويات ، وطرائق التشبيه والاستعارة ....الخ ففي هذا الخطاب نجد ان ((الحقيقة لا تظهر عاريةً امام الناس))[٦٢] ،كما يقول شوبنهور. ولهذا تكثر في هذا الخطاب الروايات التي تحكي عن حقائق تعد سراً من الاسرار (الاسرار الدينية) التي لا يفك ألغازها فكر ، ولا يعرف اغراضها اعتبار. وكل ما نقوله عنها، يجب ان لا يعد كلاماً يدل او يصدق عليها حرفياً[٦٣] .

ونحن نعرف ان هذه الطبيعة المجازية التي يتميز بها الخطاب الديني ، هي التي دعت الفلاسفة الى الاهتمام بـ ((التأويل)) وبيان ضرورته وشروط ممارسته (((الراسخون بالعلم)) كما هو الحال عند ((اخوان الصفا)) و ((ابن رشد)) على سبيل المثال لا الحصر)، ولكن ، بدلاً من التأكيد على اهمية ((التأويل)) في هذا السياق ، يكتفي شوبنهور بالتأكيد على الاعتقاد الذي كرسه ((اباء الكنيسة)) الاوائل ، ومفسروا الكتاب المقدس ، القائل ان التناقضات والمفارقات اللامعقولة هي مقومات اساسية في كل دين كامل[٦٤] ، وهي سمة من سمات الطبيعة المجازية للخطاب الديني . ولهذا السبب ((تمسك اوغسطين ، بل وحتى لوثر))، يقول شوبنهور عن حق ، ((باسرار المسيحية في معارضتها للبيلاجية*))[٦٥] . ويعتقد شوبنهور ان الايمان بهذه الامور وغيرها هو الذي يرشد الناس الى العمل ، بل ان الطبيعة المجازية في الديانات قد صُممت لهذا الغرض، وبخاصة عند اولئك الذين يؤمنون بالخلاص الابدي[٦٦] .

هذا، ويلتفت شوبنهور الى حال عصره، فيرى ان النزاع الدائر بين الماورائيين

Supernaturalists (الذيـن يؤمنـون بحقائـق مفارقـة للطبيعـة) والعقلييـن يقـوم علـى عدم الاعتراف بالطبيعة المجازية للدين . فالماورائيون يريدون ان يروا في المسـيحية ((معان حقيقية)) لا مجازيـة وحسـب ، والعقليون يبذلـون ما في وسـعهم لكي يفسـروا كل ما هو مسيحي خالص في المسـيحية ، والنتيجة لم يحصلوا على شيء ، لا علـى ((المعنى الحقيقي)) ولا على ((المعنى المجازي))[٦٧] .

ويبدو لنا ان شوبنهور كان على وعي بمحاولات ((التوفيـق)) بين الفلسـفة والدين ، او بين هذين النسـقين الميتافيزيقيين اللذين يختلف احدهما عن الآخـر من حيـث ((الاصـل)) ومـن حيث ((الطبيعـة الخاصة)) بخطاب كل منهما . والاكثر اهميـة في هذا السـياق ، الاضرار ، بل الاخطار الممكنة التي انشغل شـوبنهور في بيان حصولها في حال المزج بين هذين النسقين المستقلين .

يقـول شـوبنهور : ان محاولـة التوفيـق ، او الخلط، بين هذين النسقين ، الفلسفة والدين ، كانت شائعة في عموم العالم المسيحي ، وقد ادى تحميل عقائد وتصورات احدهما على الآخر بهذا الخلط، الى اتلافهما معاً[٦٨] . اما في ايامه ، فقد شـاع هذا الخلط بين هذين النسقين ، في هذا الفرع المعرفي الغريب والهجين المسـمى ((فلسفة الدين)) الذي يحاول ان يفسـر ((المعنى المجازي)) المعطى فـي الدين بـ ((المعنـى الحقيقي)) المسـتمد من العقـل ، ولكن من الواضـح ان انجاز هذه المهمة يفترض اننـا على علم بالمعانـي الحقيقية ، وفي هذه الحالة فان مثل هذا التفسير او التأويل سيكون عمـلاً لا ضـرورة لـه Super Flaous [٦٩] . ويلاحـظ شـوبنهور بسـداد كبيـر ان البحث عن ميتافيزيقـا عقلية في الدين او اسـتنباطها منه عن طريق التفسير او التأويل ، محاولة مشكوك فيها ، اذ ان الذي يقوم بها لن يجد امامه سوى نتاج عقله الخاص ، انها اشبه بالبحث عن معدن لا يوجد إلاّ في الخليط لا بهويته الخاصة[٧٠] .

وواضح جلي من هذا ومن غيره ان شـوبنهور شـديد الحـذر من محـاولات التوفيق بيـن هذين النسـقين المختلفين اصلاً فـ ((تأسيس الدين على العقـل يحوله الى نوع آخـر من الميتافيزيقا ، الى ذلك الذي يجد اصله في ذاته ، وبالتالي الى نسـق فلسـفي غريب عنه))[٧١] . هذا فضلاً عن ان هذه المحاولة هي محاولة غيـر مجدية اصلاً بنظره، فالتوفيـق بيـن النسـقين هـو عبارة عـن اضافة الاصـل المرجعي لـكل منهما الـى الآخر ، واذا كان كل منهمـا قـادراً علـى هـذا التأصيل ، فهو ليس بحاجة الى هذه الاضافة اساساً . بل اكثر من ذلك ، يقول شـوبنهور ((ان من العبث اللامجدي محاولـة اقامة اسـاس جديد تحت بنـاء قد انتهى بنـاؤه))[٧٢] . امـا الأبعـد من ذلك كلـه ، فهو ان شـوبنهور ينظر الى محاولات التوفيق بين هذين النسقين ، الفلسفة والدين ، نظرة براجماتية تتعلق بالاضرار الناتجة من الخلط بينهما :

ان العالـم كله، او على الاقـل، اغلبه موزع بين انساق سلطة النوع الثاني من الميتافيزيقا (الدين)، و ((شعوب الارض لا يتميز بعضها عن البعض الآخر على اساس اختلاف القوميات والحكومات، وانما على اسـاس اختلاف انسـاق هذا النوع من الميتافيزيقـا))[٧٣]، ويمكن القول ان ((كل منها، في بلده الخاص، مملكـة لوحدها))[٧٤]. ويبدو ان هذه الغلبة لهذا النسـق الثاني سـواء على مستوى العالـم ككل او على مسـتوى بلدانه فرادا ، ذهبت بشـوبنهور الى الاعتقاد بان محاولة التوفيق، ان انجـزت ، لابد ان تـؤدي الى هيمنـة مطلقة لهذا النسـق الثاني على النسق الاول الذي هو الفلسفة،

علــى عكس المتوقع الحاصــل عندنا من النظر في محاولات التوفيق بين الفلســفة والدين التي انجزها ، او كاد ان ينجزها الفلاسفة المسلمون، نظير الكندي وابن رشد على سبيل المثال الدال لا الحصر. فالكندي في ((رســالة في الفلســفة الاولــى .....)) وابــن رشــد الذي يقــول في ((فصــل المقال ....)): ((ان الحكمة هي صاحبة الشــريعة ، والاخت الرضيعة))[٧٥]، انما كانا يريــدان الدفاع عن حق الفلسفة(الشــرعي) في الوجــود في مجتمــع متدين ، مهدد تســامحه ، بفقهاء في الدين متشــددين تعصباً لا يتورعون مــن اخــراج اصحــاب الحكمة ، وحتــى العباد الآخرين ، من شريعة الاسلام .

لقــد ذهب شــوبنهور مذهبــاً آخــر ، فبما ان النســق الميتافيزيقي الديني هو السائد ، الغالب، المهيمــن، في ثقافة الشــعوب والامم ، فان هذا النســق ((ســيجبرهم على ان يجعلوا تعاليمهم تتفــق مــع تعاليمه))[٧٦] . وفــي بعض الاحيان لا يكتفــي هذا النســق باخضــاع اتباع النســق الآخــر (الفلســفي) ، وانما يعمل على توظيف خدماتــه واســتخدامها لحســابه الخــاص[٧٧] ، وهــذا ما حصــل بالفعل في مســيحية العصور الوسطى التي اصبحت فيها ((الفلسفة في خدمة اللاهوت)). كما قلنا ، وكما يجدر بنا ان نقوله ها هنا . والحق ، ان النسق الآخر (الفلسفي) ، لقلة الاتباع والانصار، والتجرد من القوة والســلطة والاحقــاد ، تجده نســقاً متســامحاً Tolerated لا يحــل مشــاكله بالعنــف والاقتتــال، كما هو حال النســق الاول (الدينــي) وفي هذا الصدد يقــول الطيب شــوبنهور ان هذين النســقين من الميتافيزيقا ، الفلسفة والدين ، انهما ((يشتركان في ان كل نســق من انساقه الخاصة على علاقة عدائيــة بكل الانســاق الاخرى مــن نوعه (= المذاهــب الميتافيزيقيــة الفلســفية والديانات) . ولكــن ، في حين ان الحرب تُشــن بين انســاق النوع الاول (الفلسفي) بالكلمة والقلم ، نجد ان الحرب بين انســاق النوع الثاني (= الديانات ، وفرقها) تُشــن بالنار والسيف))[٧٨]، وهو قول لا نظير له في وضوح الصراحة واســتخلاص النتائج من الوقائع .

على هذا النحو فهم شوبنهور نتائج الخلط بين النسقين الميتافيزيقيين ، الفلسفي والديني، العقلي والايمانــي ، وعلى هذا النحو نظــر في النتائج المترتبة على التوفيق بينهما . و ((ســيكون من المفيــد جــداً)) ، يقول لنا شــوبنهور ، ((لكلا نوعــي الميتافيزيقا (الفلســفة والدين) ان يبقى كل منهما منفصلاً عن الآخر ، وان يحصر كل منهما نفســه في ميدانه الخــاص ، ليكون قادراً على ان يطور وينمي طبيعته الخاصة))[٧٩] .

انهــا دعــوة للفصــل بيــن الفلســفة والدين . والدعوة لابد لها من دواعٍ . والحق الذي يســنده الواقع ، ان النظر في مسألة العلاقة بين الفلسفة والدين ، والذي لم يخرج من الذهاب الى احدى الاتجاهــات الثلاثــة ، الاقصــاء او التوفيــق او الفصل ، غالباً ما تخفيــه الصورة الموضوعية التي يتبدى عليها ، ومع ذلك فان بعض الفلاسفة لم يخف دواعيه نظير ابن رشد وشوبنهور على سبيل المثال ، فابن رشد يتحدث عن ((الفرق)) التــي فرقت الامة ، وشــوبنهور مــا انفك يؤكد على ان الانســاق الفلســفية ، المجردة من القوة والســلطة ، قد استُعملت ضدها اساليب ((النار والســيف)) بضــراوة[٨٠] . ويبين كيف ان هذه الانســاق تضطــر الــى ان ((تتحمــل المعاناة بصبــر، والواقــع بخضوع كبيــر))[٨١] . وفي مقابل ذلك ، ما انفــك يتحدث ايضاً عن الهيمنة

التي مارسها الدين على العلم والمعرفة في العالم المسيحي ، وعن الحروب الدموية ، وتطويف بني البشر احباء الله على الارض ، بين اتباع الانساق الدينية في هذا العالم .

والحق ، ان شوبنهور يرسم لوحة سوداء قاتمة في هذا الصدد ، لوحة لا تمثل حروب القرون الوسطى في العالم المسيحي ومظالمه المرعبة، وانما تمتد لتمثل عصر النهضة والى اواخر القرن السادس عشر الميلادي[٨٢]، الذي ما زال الناس فيه ، في اوروبا الغربية ، خاضعين الى الهيمنة المسيحية . وفي هذه الحقبة من التاريخ، بل ((وخلال المرحلة المسيحية كلها ، جثم مذهب التأليه الديني كالجبل على كل الجهود الفكرية والفلسفية بصفة خاصة ، وعطّل كل تقدم))[٨٣]. لقد شُلت العقول بالمحرمات والآراء الخاطئة، وتوقف النظر العلمي في الطبيعة واعمالها ، وبدلاً من تفسير الظواهر الطبيعية بالروابط السببية ، ذهب القائمون على العلم الى القوى الخفية . وفي هذا الصدد ، ينقل شوبنهور عن احد المفكرين قوله ((ان كل شيء كان يُفسر بالرجوع الى الاله والملائكة ، او الشياطين، اما الفلاسفة فلم يكن لهم ما يفعلونه بأي حال من الاحوال))[٨٤] ، ويطيب لشوبنهور ان يعلق على قول (بومبوناتيوس)* هذا قائلاً : ان هذا الاخير كان يعبر عن طريقة التفكير العامة في عصره[٨٥]. اما اذا صادف وتحلى المرء بملكة العقل ، وفكر خارج اطار وحدود هذه الطريقة العامة في التفكير ، فانه سيُرمى ، هو ومؤلفاته، في لهيب النار ، كما حدث لـ (برونو) و (فانيني)* .

ويقارن شوبنهور بين الوضع في ظل هيمنة الدين في العالم المسيحي وبين الوضع في ظل ثقافة القدماء وبخاصة الاغريق ، فيلاحظ : ان لا شأن لهؤلاء بما نفهمه نحن من الدين ، فليس لديهم نصوص يجب ان تقدس ، ولا عقائد قاطعة يجب ان تُعلم ، بل قبول هذه العقائد من عدمه امر متروك ومتاح لكل شخص وفرد . وصحيح ان هناك عقائد اخلاقية ولكن القيمين على الديانات، لا يلاحقون الناس ويحاسبونهم على ما فعلوا وما تركوا . وواجبات رجال الدين محصورة في اقامة الصلوات واسداء النصائح والرشد بالمواعظ[٨٦]. هذا ، ويتوج شوبنهور هذه المقارنة التي اوجزناها، بالقول : ((في العالم القديم كله، لم يكن هناك اي اثرٍ لأي الزام باعتناق اي عقيدة خاصة))[٨٧]، باستثناء حالة واحدة يُلزم بها المرء، يُفرض فيها العقاب ، وهي حالة انكار وجود اله[٨٨] .

على أي حال فان هذه المظالم ، وهذا الدم، لابد ان يدعو الفيلسوف -اي فيلسوف - الى ان يقول كلمة الفلسفة التي يمثلها . ويبدو من الواضح ان شوبنهور يُحمل هيمنة المسيحية على العالم الغربي في القرون الوسطى وما تلاها هذه المسؤولية. وبما ان شوبنهور ، ومعه اغلب الفلاسفة في العصر الحديث ، يفرق بين ((المسيحية الخالصة))* ومسيحية رجال الدين (مسيحية الكنيسة) ، ويستخلص ويتفحص ، نظراً وتحذيراً ، النتائج المترتبة على التوفيق بين الفلسفة والدين ، فاننا لن نكون على مسافة بعيدة عن الحق ، ان قلنا ان الخلاص من هذا الوضع المزري سيكون ممكناً في حال الفصل لا الخلط بين هذين النسقين الميتافيزيقيين .

ان شوبنهور وهو ينظر في امكان الفصل ، بل في واقع الانفصال بين هذين النسقين استناداً الى مرجع وبنية كل منهما ، فهو قد نظر اليهما بوصفهما واقع معطى ان يكون اصل الدين ومرجعيته ((خارجة)) ، في الوحي ، وان يكون الاصل المرجعي للفلسفة من داخلها ، العقل . اما

مـن حيث الاصـل ، لا الاصـل المعطى (في اذهـان وضمائر ومشـاعر المؤمنيـن والاتباع ..... الخ) وانما الاصل المُنشـئ ، فهو واحد لا تكثـر فيه هو ، وانما في تجلياته وتمثلاته . وإلاّ كيف الفصل بين طرفين اصلهما واحد ، ولماذا الفصـل بين طرفيـن اصلهما واحد ؟ ومن دون فكرة ((الواقع المعطى)) لن نحل هذا الاشكال في رؤية الفيلسوف .

ان الفلسـفة والديـن من اصل واحـد ، انهما تجليان متباينان لمنبع واحد هو حاجة الانسـان، بما هو انسـان ، الـى الميتافيزيقا ، الى دهشـة الانسـان مـن ((الآخـر)) ، وتسـاؤله من ثم عن معنى وجـوده ازاء الآخر – العالم ، ولكنه يتجـاوز To Transcend بطبيعتـه مـا هـو معطـى الى حيث مـا هو اقصى من السـؤال: سؤال الوجود : ((ما الوجود ؟)) ، ما العالم؟، مـا مبـدأه ، مـا اصلـه؟ أمحـدود هـو ام غير محـدود؟ .... الـخ . وفـي هـذا الانعطاف نحو الابعـد تتداعـى الحدود ، ولا نعـرف اين يقف حد الفلسـفة واين يبـدأ حد الديـن ، ويدخل كل الفكر في هذا الفضاء من الانعطاف الى سماحة الميتافيزيقا الواحدة باصلها ، المتكثرة بمذاهبها وخطاباتها . والسؤال هو ، كيف تكثرت ، كيف تباينـت ، كيـف تجلت: هنا ، عقـلاً ، وهناك ، وحيـاً ، والعكس صحيح ؟ يخبرنا شـوبنهور، بل يتحفنا، بعبارة اخرى، لا مزيد على دقتها ، وقدرتها على الايحاء : ((ان القدرة الميتافيزيقية لا تتساوق مع الحاجة الميتافيزيقية))[٨٩] .

لقد استطاعت القدرة على التعبير في الفلسفة ان تـدرك المعنـى الحقيقـي، المباشـر للحق ، اما الدين، فقد اسـتبدل هذه الطريقة المباشرة، بالطريقة غير المباشـرة، بالطريقـة التي أدت فيهـا انزياحات اللغـة دورها وفعلهـا، فاصبح الكلام فيه مجازاً ، والمعنى فيه معنى مجازياً .

الحاجـة الميتافيزيقية اصيلة وواحدة . والدين ميتافيزيقـا الشـعوب ، وهـو من ثـم ميتافيزيقا الكثـرة ، في حين ان الفلسـفة ميتافيزيقا القلة ، النخبة . لقد حدث وان ألتقت الميتافيزيقا بالنخبة فأصبحت فلسفة ، وألتقت بالكثرة اصبحت ديناً. وهـذا كل مـا يمكـن ان يُقال عن هـذا اللغز – التناقض الذي وضعنا فيه شوبنهور .

خاتمة

من النتائج التي وصل إليها البحث في مسـألة العلاقـة بيـن الفلسـفة والدين مـن وجهة نظر الفيلسـوف الألماني الحديث ارثر شوبنهور هي -أولاً : أن التعـرض لهـذه المسـألة جـرى في سـياق مقاربة هذا الفيلسـوف بيـن الميتافيزيقا والديـن كما طرحها في كتابـه الرئيس " العالم إرادة وتمثـلاً " وفي نـص محاورته بعنوان " الدين "- ثانياً : البيان والتأكيد على أن معطيات موقـف الفيلسـوف من هذه المسـألة القائم على الفصـل بيـن الديـن والفلسـفة قـد أصبحت أم المسائل في فضاء مباحث فلسفة الدين الراهنة. - ثالثـاً : التوكيـد الموثق علـى أن خطاب هذا الفيلسـوف في الدين من أوضـح وأغنى متون خطـاب الفصل بين الدين والفلسـفة في العصر الحديث من دون أحكام مسبّقة (مع مقاربات مع محاولات الفصل كما طرحها بعضاً من فلاسفتنا مثل الكندي ، في أول تفلسفه ، والسجستاني ـــ المنطقي ، وابن رشـد بحسـب التأويل الغربي ـــ اللاتينـي لفكره وحسـب). ومسـاهمة هذا الخطـاب الممكنة في حـل أو تفكيك جانب من أكثر جوانـب مشـكلاتنا الثقافيـة والعملانية (حساسـية) وتأثيـراً ، وذلك من خلال الكشـف عن أصول التعصب وإمكان إشـاعة التسـامح Tolerance في المجتمع .

الهوامش

1- (1)Arthur Schopenhauer ; The World as Will and Idea . Vol .II ; trans . R.B .Haldane , M .A and J .Kemp .M.A . London :Routledge and Kegan Paul Limited, , 1957p. 364.

٢- تتلمذ (شـــوبنهور) على فلسفة (كنت) النقدية، وكان عضواً بارزاً في مدرســـة ((الكنتية الجديدة)) التي رفعت شـــعار ((العودة الى كنت)) ، وكان يعتقد بأن الفلاســـفة اللاحقين لكنت ، بما فيهم هيجل واتباعه ، قد شـــوهوا ما هو صحيح في فلســـفة الاستاذ . راجع حول هذه المســـألة ، وتفاصيل حول التعريف اعلاه ، ودلالاته الفلسفية : حسون فندي السراي ، الميتافيزيقا والآخر ، مجلة ((دراسات فلسفية)) بغداد، منشورات بيت الحكمة ، العدد (١٩) ، ٢٠٠٦ ، ص٣٧-٣٩ ، وهامش رقم (١) .

٣- ايمانؤيل كنت ، مقدمة لكل ميتافيزيقا ممكنة ، ص٥٣ .

٤- علـــى ســـبيل المثـــال : القضية : ((العالـــم له بداية من حيـــث الزمـــان والمكان ، نقيض القضيـــة : العالم لا متنـــاه من حيـــث الزمان والمـــكان)) . وقد حصر (كنت) النقائض باربع نقائض . راجع : كنت : مقدمة لـــكل ميتافيزيقا ممكنة ، ص١٦٤ ، وكنط : نقد العقل المحض ، ص٢٢٧ فما بعد .

٥- انظر : كنط ، نقد العقل المحض ، ص .

٦- انظر : المصدر نفسه ، ص٣١-٣٣ .

٧- انظـــر : كنط ، نقد العقل المحض ، ص٦٤ ، ص٧٣، ص١٧٠ .

8- Schopenhauer , op , cit , p63.

٩- هذه المقاربة بين ((الشـــيء فـــي ذاته)) و ((الآخر)) و ((الارادة)) جـــزء ممـــا قدمناه مفصلاً في بحثنا ((الميتافيزيقا والآخر)) السابق ، ص٣٨ ، فما بعد .

١٠- عمانؤيل كنط ، نقد العقل المحض ، ص٤٠٤ .

١١- المصدر نفسه ، ص401 .

12- Schopenhauer , op , cit , p369.

13- Ibid ; p. 359.

14- Ibid ; p. 359.

15- Ibid ; p. 372.

16- Collins , James , A history of European philosophy . U.S.A : The Brace of Publishing Company , Milwaukee, 1959 , p. 676.

17- Schopenhauer , op , cit , p. 359.

18- Ibid ; p. 360.

19- Ibid ; p. 361.

20- Arthur Schopenhauer ; The Essays of Arthur Schopenhauer , Volume : 3 Religion :A Dialogue ; trans . T .Bailey Saunders .U.S.A : Pennsylvania State University, , 2005p. 21.

21- Ibid ; p8.

22- Ibid ; p9.

23- Ibid ; p8.

24- Ibid ; p. 22.

25- Schopenhauer , The World as Will and Idea , op , cit , p. 362-363.

26- (26)Schopenhauer ; The World as..... p. 368.

27- (27)Schopenhauer ; The Essays..... P. 18.

28- Schopenhauer ; The World as , p368.

29- Ibid ; p. 368.

30- Ibid ; p. 368.

31- Schopenhauer ; The Essays ..... P. 18.

٣٢-انظر كنت : نقد العقل المحض ، ص٣٢

33- Schopenhauer ; The World as ..... p. 367.

34- Ibid ; p. 360.

35- ينظر : Ibid ; p361.

36-Schopenhauer ; The Essays ……. P19.

37-Ibid …… p9.

38-Ibid ; P9.

39- ينظر : Ibid ; p9.

40-Ibid ; p9.

41 -Ibid ; P9.

42-Schopenhauer ; The World as ..… p18.

43-Ibid ; p18.

44 -Ibid ; p18.

45-Schopenhauer ; The Essays P9.

46- Ibid; P27.

47- ينظرIbid ; p27.

48-Ibid ; P27.

49 -Ibid ; p27.

50- Schopenhauer ; The Essays ……. P23.

51-Schopenhauer ; The World as..… p372.

52-Schopenhauer ; The World as..… p372.

53- Ibid; p371.

54 -Ibid ; p371.

* (بخلـق العالــم – الابدي ، ووهم العالم الظاهري ، (p371

55 -Schopenhauer ; The World as..… p362.

56-Ibid ; p362.

57- Schopenhauer ; The World as..… p372.

58 -Ibid; p365

59- Ibid ; p365

60-Ibid ; p365.

61- Ibid ; p365.

62 - Ibid ..… p367.

63 - Ibid ; p367.

64- Ibid ..… p368.

- نســبة الى بيلاجيوسPelagianism البيلاجية (360 – 420) الراهـب البريطانــي الـذي انكـر الخطيئة الاصلية وقال بحرية الارادة التامة

65 -Ibid ; p.368

66-Ibid ; p368.

67- Ibid ; p369.

68- Ibid ; p370.

69- Ibid ; p370.

70- Schopenhauer ; The World as..… p370.

71- Ibid ; p369.

72- Ibid ; p367.

73- Ibid ; p366.

74- Ibid ; p366.

٧٥-ابــن رشد ، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة مــن الاتصـــال ، تحقيق محمد عمـــارة، بيروت : المؤسســـة العربية للدراســـة والنشـــر ، ١٩٨١ ، ص٦٧ .

76- Schopenhauer ; The World as..… p366.

77- ينظر : Ibid ; p366.

78- Ibid ; p366.

79 -Ibid ; p369.

80- Ibid ..… p366.

81-Ibid ; p366.

82- Schopenhauer ; The Essays ……. P13.

83- Ibid ; p13.

*- بومبوناتيــوس Pomponatius (1462 – 1525) هو فيلسوف ايطالي ارسطوطاليسي كان يقول بالتمييز بين العقل والايمان .

84- Ibid ; p13.

* برونــو Bruno (1548 – 1600) فيلســوف ايطالــي درس فــي جنيفا ، وعلّم في جامعــات العالم المختلفة ، اوقفته ((محكمة التفتيش)) سيئة الصيت عام ١٥٩٢، ثــم رحل الــى محكمة التفتيش فــي روما (١٥٩٣) حيــث اتهم بالهرطقة واعدم حرقاً . اهم كتبه ((الكون اللامتناهي)) .

*- وفانيني Vanini (1584 – 1619) فيلســوف لاتيني ارسطوطاليســي الاتجاه من عصــر النهضة ، اتهم بالهرطقة وحكم عليــه بالاعدام حرقاً من قبل محكمة التفتيش . اهم كتبه ((اسرار الطبيعة ، والملكة ، وآلهة الكائنات الفانية)) .

85- Schopenhauer ; The Essays ……. P14.

86- Ibid ; p15.

87- Ibid ; p15.

* يُقابل شوبنهور بين ((مسيحية خالصة ومسيحية غريبة)) Schopenhauer ; The World as ….. p.٣٦٩

88- (89)That metaphysical capacity does not go hand in hand with the metaphysical need . Ibid ; p.362.

المصادر

١- ابن رشــد ، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصــال ، تحقيق محمد عمارة ، بيروت : المؤسســة العربية للدراسة والنشر ، ١٩٨١.

٢- ايمانؤيــل كنــت؛ مقدمــة لــكل ميتافيزيقــا مقبلــة.... ترجمــة نازلي اســماعيل حســين,القاهرة: دار الكاتب العربي,١٩٦٨.

٣- حســون فندي الســراي ، الميتافيزيقا والآخر ، مجلة ((دراســات فلســفية)) بغداد ، منشــورات بيت الحكمة ، العدد (١٩) ، ٢٠٠٦.

٤- عمانوئيــل كنــط ، نقد العقل المحض ، ترجمة موســى وهبة ، بيروت : مركز الانماء القومي ، بلا .

5-Arthur Schopenhauer ; The Essays of Arthur Schopenhauer ,—: A Dialogue ; trans . T. Bailey Saunders . U.S.A : Pennsylvania State University , 2005 , p.21 .

6- Arthur Schopenhauer ; The World as Will and Idea . Vol. II ; trans . – R.B. Haldane , M. A and J. Kemp. M.A . London : Routledge and Kegan Paul Limited , 1957 , p.364 .

7- James Collins A history of European philosophy . U.S.A : The Brace of Publishing Company , Milwaukee , 1959 , p.676 .

Discourse of Separation between Philosophy and Religion for Schopenhauer.

Prof. Dr. Hassoon Alioui Fendi.

Almustansiriyah University.

The problem of the relation between Philosophy and Religion witnessed different trends. In general , the separation trend had to be more present and spread in the modern western thought from the age of European Renaissance to our today.

The research discusses this problem from the point of view of modern philosopher Arthur Schopenhauer based on his major book « The Word as Will and Idea « , and his dialogue called « Religion «. The main idea of Schopenhauer›s religious philosophy is that Metaphysics (or Philosophy) and Religion are separated, and the separation between them is a very important for human culture , and a very necessary for realizing the values of tolerance, communication and peace .